دور النبيّ محمد (ﷺ) في إحياء اللغة العربية وسلامتها

الأستاذ المساعد الدكتور
مرتضى عباس فالح

المستخلص

منح الله تعالى الإنسان قدرة على التعبير عمّا في داخله من افكار ومشاعر واحاسيس ، فكانت اللغة وسيلة مهمة لذلك ، وفضلا عن ذلك فهي هوية الامة وعنوان وجودها ، وهذا ما كان للغة القران الكريم ، اللغة العربية التي نطق بها الرسول المصطفي محمد (ﷺ) ، فكان هذا البحث ليوضح دور الرسول (ﷺ) في إحياء اللغة العربية وسلامتها ببيان فصاحته (ﷺ) وسمات ألفاظه ، وم ثمّ دوره (ﷺ) في إحياء العربية وسلامة ألفاظها ومعانيها .

المقدمة

الحمد لله القائل في كتابه المجيد ((وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ)) [١] والصلاة والسلام على خير من نطق بالضاد النبي العربي الأكرم محمد واله الطيبين الطاهرين (ﷺ) . السلام على اللغة العربية التي قال فيها شاعر العربية من مصر ((حافظ إبراهيم)) عن لسانها اذ نعت حظها بين أهلها فمن ذلك[٢] :

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
فلا تكلوني للزماني فإنني ... أخاف عليكم أن تحين وفاتي
أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي

منح الله تعالى الإنسان قدرة على التعبير عمّا في داخله من أفكار ومشاعر وأحاسيس فكانت اللغة وسيلة مهمة لذلك وغيره [٣] ، وفضلاً عن ذلك فهي هوية الأمة وأعظم مقومات وجودها ومفاخرها ، وهذا ما كان للغة العربية لغة القرآن الكريم[٤] ، ولغة الرسول المصطفى (ص) القائل : ((أنا أعرب العرب ، ولدتني قريش ، ...))[٥] . وهذا

يشير الى ما للرسول الأكرم (ص) من دور كبير في الحفاظ على لغة القرآن الكريم وإثرائها بألفاظه ودلالاتها مما أسهم بشكل كبير جداً في نهضة العربية وتطويرها .

التمهيد

فصاحة النبي (ﷺ) ومعرفته باللهجات العربية :

مما لا شك فيه أنّ النبي (ﷺ) أسس مبادئ الفصاحة والبيان ممّا ألهمه الله تعالى من العلم اللدنّي ، وقد أشار النبي (ﷺ) إلى ذلك بقوله :- ((أدّبني ربّي فأحسن تأديبي))[٦] ومن صور ذلك التأديب ما للرسول (ﷺ) من فصيح المعرفة والتدبّر والتأمل وفصيح إتقان اللغة ، وقد قال (ﷺ) : ((أُعطيتُ فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه))[٧] .

إنّ هذه النشأة في ظل الإلهام الرباني وما كان يعيشه (ﷺ) في أحضان جده عبدالمطلب ومن ثَمّ عمه أبي طالب فضلاً عن قبيلته قريش وما كان يتعلمه (ﷺ) ويستفيد من حركة التجارة واللقاءات الأدبية وما يكون من ميادين المعرفة والفكر ، فكان للبيئة القرشية أثرها الواضح في فصاحة النبّي محمد (ﷺ) .

إنّ قريش كانت ذات دور ومنزلة في إنتقاء الألفاظ وحسن استعمالها وإبراز لغتها على بقية لغات أو لهجات العرب ، وهذا ما اجتمع للهجة قريش من رفعة ومكانة عالية اكتسبتها من موقعها الجغرافي والتجاريّ وما لذلك من دور في إلتقاء الحضارات بلغاتها .

ليس من الغريب أنْ يُكلمَ النبّي (ﷺ) كل قوم من العرب بلغتهم أو لهجتهم ، وهذا واضح وجلّي فيما قاله عمر بن الخطاب بقوله للرسول (ﷺ) :- ((يا رسول الله إنك تأتينا بكلام من كلام العرب وما نعرفه ، ولنحن العرب حقّاً))[٨] .

إنّ كلام العرب مشتمل على كثير من لهجات العرب ، ومعرفة الرسول (ﷺ) بكلام العرب يُعد بمثابة الحفظ للهجات العرب وحفظ ذلك التراث ، ومن أمثلة ذلك : ما أورده ابن الاثير (ت ٦٣٧ هـ) للنبّي (ﷺ) قوله : ((لا مانع لما أنطيت ولا منطي لما منعت)) و ((اليد المنطية خير من اليد السفلى)) [٩] .

إنّ هذه اللهجة يبرز فيها ظاهرة ((الاستنطاء)) وهي موجودة في لهجة قبائل هذيل ، والأزد ، وقيس ، وهذه الظاهرة تجعل لعين الساكنة نوناً إذا جاوزت الطاء[١٠] .

إنّ الرسول (ﷺ) حينما يستعمل هذه اللهجة أو غيرها ، ذلك لأجل التأثير في هذه القبائل وغيرهم في إيصال الرسالة الإسلامية ، وحتى يساعد رواة تلك القبائل في إيصال الرسالة إلى غيرهم من القبائل إذ تكلم بلسانهم .

المحور الاول

سمات الألفاظ النبوية :

من أهم سمات الألفاظ النبوية ما يأتي :

أولاً : الإيجاز في لغة الحديث :

وهذا واضح في مواطن كثيرة من كلامه فهو يوجد عندما يقتضي مقام الإيجاز سواءً في خطبه أم رسائله أم كلماته وغيرها ، ومن أمثلة ذلك قوله (ﷺ) : ((الحربُ خدعة))[١١] إنّ هذا الحديث الشريف على وجازته لكن فيه كثيراً من المعاني المتعلقة بالحرب وما تتطلبه من أمور مهمة ومنها : الحنكة القيادية وعنصر المباغتة والمفاجأة ، فضلاً عن ضرورة الكتمان في تدبير الخطط العسكرية والحذر في تحرّك الجيش[١٢] . وهذا كله في إطاره ومجاله الإيجابي الذي لا يتصرف الى المعاني السلبية للفظة (خدعة) مع ملاحظة أن المدلول اللغوي لهذه اللفظة تقوم على دلالة أنّ كلَ ما تكتمه فقد خدعته [١٣] .

ثانياً : سهولة تلقي الألفاظ النبوية وسلاستها :

إنّ سماع الألفاظ النبوية يترك وقعاً جميلاً بدلالاتها ومعانيها في العقل والقلب قبل الاذن لإيصال كلامه المبارك الى أقصى درجات التلقي لدى السامعين أو القارئين بغية ترك الأثر في نفوس المتلقين . ومن أمثلة ذلك : ما قاله (ﷺ) :- ((إنّ لربّكم في أيام دهركم نفحات فتعرضّوا له ، لعلّه يصيبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبداً))[١٤] المتأمل في هذا الحديث المبارك يستشعر اللطائف الإلهية والمشاعر الرحمانية على لسان النبي المبعوث رحمة للإنسانية جمعاء ، وهو ينصح الأمة باستثمار الوقت وتوظيفه في طاعة الله تعالى وأنّ لا يفوّت الإنسان أية فرصة أو لحظة في سبيل إستنزال الرحمة الإلهية .

فلفظة (نفحة) الواردة في الحديث الشريف أشارت إلى هذه العطايا والمنح الإلهية المباركة فلو نظرنا في المعنى اللغوي للفظة (النفحة) ، نجد معناها : دلالة دفعة الريح ، وإلى

ذلك أشار ابن فارس بقوله : ((النون والفاء والحاء أصل يدلُّ على اندفاع الشيء أو دفعه ، ونفحة رائحة الطيب : انتشرت واندفعت)) [١٥] ، وهذا واضح في إندفاع العطاء الإلهي واغداقه على العالمين في تلك الاوقات القائمة على الطاعة والإيمان .

ثالثاً : تجسيد ألفاظه المباركة لفنيّة التعبير عن المشاعر :

فضلاً عن تجسيد تلك الألفاظ لما حوله من بيئة يجعلها وكأنها كائن حي يجسد ما اراده (ﷺ) في جبل أحد : ((هذا جبلٌ يحبّنا ونحبّه))[١٦] ، إذ جعل أحجار الجبل مليئة بالمشاعر والأحاسيس والإنفعالات والمودة والحب الذي تتبادله مع النبي (ﷺ) [١٧] ، وهذا في ضوء ما يتركه الإنسان من آثار لأعماله وأفعاله في أرض الله تعالى .

إنّ ذلك التعبير إنما جاء وفق أسلوب يتميز هنا وفي غيره من كلام النبي (ﷺ) بميزة مهمة ، وهي ما يسمى (بالسهل الممتنع)، وهو قائم على نظم الألفاظ والتراكيب في قالب منها تشعُّ منه المعاني والدلالات بأحسن صورها وهيأتها ، وهذا واضح في أسلوب الرسول المصطفى (ﷺ) ضمن كلامه الشريف ، كما وَرَدَ في الأمثلة السابقة ، ومنها أيضاً قوله (ﷺ) : ((إفعلوا الخير دهركم ، وتعرّضوا لنفحات رحمة الله ، فإنّ لله نفحات من رحمته يصيبُ بها من يشاء من عباده ، وسلوا الله أنْ يستر عوراتكم ، وأنْ يؤمّن روعاتكم))[١٨] ، إنّ هذا الكلام ليعجز عن أنْ ياتي به إنسان بهذه الصورة من النظم وهذا الجمع لهذه الدلالات والمعاني وهذا لا يكون إلّا للبني واله الطاهرين (ﷺ) .

رابعاً : وضوح المعاني والدلالات في الألفاظ النبوية :

إذْ تشعُّ الالفاظ النبوية كالشمس بعظيم المعاني وجليل الدلالات في كلامه المبارك (ﷺ) ، ومن أمثلة ذلك قوله (ﷺ) في الدعاء : ((إغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة))[١٩] .

وقول آخر له (ﷺ) في عظيم الأخلاق التي يجب أن يتمتع بها الإنسان ولا سيما الانسان المسلم : ((افشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام))[٢٠].

إنّ الدلالات الواضحة في الأمثلة أعلاه تغني عن شرحها فهي ناصعة بالمعنى المراد إيصاله للمتلقي .

خامساً : تناغم وتلاؤم الألفاظ النبوية مع كل عصر لغةً وموضوعاً :

إنّ هذا دليل عظمة وشموخ للغة النبي (ﷺ) ودلالاتها وموضوعاتها ، فلغته (ﷺ) مألوفة في كل عصر ومفهومة بمرادها الواسع لدى كل قوم ، وهذا يجسّد أنّ اللغة وسيلة مهمة بل هي الوسيلة للإتصال بين أفراد المجتمع سواء في المكان والزمان نفسيهما أو ما بعدهما .

ولعل من أمثلة تلك الميزة والسمة الرائعة لكلامه (ﷺ) ، قوله (ﷺ) : ((كل معروف صدقة))[٢١] .

إنّ ألفاظ هذا الحديث الشريف تتناغم مع كل عصر بمكانه وزمانه أثراً وفائدةً ، ومثل ذلك قوله (ﷺ) :- ((مَنْ لا يَرحم لا يُرحم))[٢٢] ، وكذلك قوله (ﷺ) : ((الدنيا مزرعة الآخرة))[٢٣] .

وغير ذلك من الأمثلة في كلامه وأحاديثه الشريفة التي طو العصور والدهور وهي متجددة المعنى والغاية والموضوع .

المحور الثاني

دور الألفاظ النبوية في إحياء اللغة العربية وسلامتها :

إنّ الدين الاسلامي برسالته السمحاء على حاملها وناشرها الرسول الأكرم وآله الميامين (أفضل التحيات والسلام) قد حفظ اللغة العربية وزاد في نمائها وطوّرها ألفاظاً ومعاني ، وكان للغة القرآن الكريم دورها في حفظ الدين الإسلامي أيضاً .

وما تراث النبي (ﷺ) من أحاديث وخطب ورسائل وغيرها إلّا دليل على عظمة اللغة العربية ودورها الفاعل في إيصال الرسالة الإلهية الى البشرية جمعاء .

إنّ من أهم مظاهر ذلك الأثر ، هو ما يأتي :

أولاً : إنّ لغة القران الكريم والحديث الشريف أضفى صفة وميزة مهمة في توحيد كيان اللهجات آنذاك فجعلها في إئتلاف واحد وهو اللغة العربية الفصيحة ، والى ذلك أشار المستشرق الفرنسي بلاشير بقوله : ((إنّ وحدة اللغة العربية هي وحدة أخلاقية ودينية قبل كل شيء ، مؤسسة على وحدة تاريخ اللغة ، وإننا كلّما درسنا اللغة الفرنسية

لاحظنا أنها تطورت عبر العصور بحيث نجد لها أطواراً ، فإذا قارنا حالة اللغة الفرنسية في العصور الوسطى وجدنا أنها مغايرة كلّ المغايرة للغة المستعملة في القرن السابع عشر ، وهذه أيضاً مختلفة عن لغتنا اليوم ، هذه الوحدة في اللغة الفرنسية لا تتضح إلّا بالبحث والمقارنة ، في حين أنّ الوحدة في اللغة العربية تتضح للقارئ ولو كان أجنبياً لأوّل وهلة))(٢٤) .

والفضل الكبير في تلك الوحدة والحفاظ عليها هو للقران الكريم وللرسول الأمجد (ﷺ) . وهذا جاء عبر وسائل مهمة منها التوليد والإشتقاق للألفاظ ، ومن ذلك ما فعلهُ الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتابه (العين) الذي أخذ يعمل بنظام التقليبات اللغوية بأن يقلّب صيغة الفعل الواحد عدة تقليبات فيظهر في كل مرة فعل يكون ذات معنى معين أو أنه يكون مهملاً مما أفاد في إثراء اللغة العربية .

ثانياً : إنّ الرسول (ﷺ) برسالته المباركة التي حملها رحمةً للعالمين أجمعين ساعد وأسهم بشكل كبير في إخراج اللغة العربية من مكانها (قريش) إلى بيئات أخرى بل والى أزمان أخرى فهذا وسّع من دائرة معرفتها ومن ثَمّ استعمالها بشكل كبير(٢٥) .

ثالثاً : الإتساع في اللغة العربية ومفرداتها : إنّ كثيراً من الالفاظ كانت موجودة ، ولكن الرسول (ﷺ) لما جاء مرسلاً ومبشراً ونذيراً وموضحاً ما في القران الكريم من أحكام وشرائع ومعاني ودلالات فإنّ ذلك وسّع من استعمال الألفاظ العربية ووسّع من دلالاتها فضلاً عن إستعمال ألفاظ ندر استعمالها لكنها عربية أو مستعملة عند العرب فلما إقتضت الحاجة لها ظهرت بثوب جديد وطُعّمت بمعاني جديدة ، فكان العربية لغة الرسالة السماوية الى العالم أجمع في كل مكان(٢٦) .

رابعاً : تطوير الألفاظ العربية : من ذلك ما ذكر من أنّ وفداً من قبيلة جُهينة قد جاء النبي (ﷺ) فقال لهم (ﷺ) : ((مَنْ أنتم ؟ قالوا : بنو غيّان . قال (ﷺ) : أنتم بنو رَشْدان)) (٢٧) . وقد كان واديهم يُسمى بـ (غوى) فسماه النبي (ﷺ) رَشْداً (٢٨) . فهنا غيّر الرسول (ﷺ) اللفظة ؛ لما فيها من دلالة ومعنى غير صحيحين وغير لائقين ، فأطلق تسمية جديدة بدلالة تناسب المقام والحال.

خامساً : توسيع معاني الألفاظ : لعل من اهم في ذلك ، ما رَوَتْهُ السيدة عائشة (رضي الله عنها) عن الرسول (ﷺ) أنه (ﷺ) قال :- ((عليٌ سيد العرب . فقلتُ : يا رسول الله ألست سيد العرب ؟ قال : أنا سيّد ولد آدم وعليٌ سيد العرب . قلتُ : وما السيد ؟ قال : مَن أفترضت طاعته كما أُفترضت طاعتي))[٢٩] ، هذا فضلاً عمّا ذكر سابقاً من إشارات لذلك .

سادساً : أثرى الرسول العربي مادة المعجم العربي بأحاديثه الشريفة وتراثه من خطب ورسائل وغيرها . فإنّ المعاجم العربية مثل (لسان العرب : لأبن منظور) و (الصحاح : للجوهري) و (تهذيب اللغة : للأزهري) و (العين : للخليل) وغيرها كانت تحتوي مادة كبيرة من الشواهد والأمثلة من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، والتي كانت تُوضّح المعاني لتلك المفردات اللغوية[٣٠] .

الخاتمة

إنّ فصاحة النبيّ (ﷺ) وسعة ثقافته ومعرفته وإطلاعه على اللغة العربية ولا سيما من خلال القرآن الكريم وما ضَمّ بين دفتيه من ألفاظ ومعاني ودلالات كان للرسول (ﷺ) دوره الكبير والعظيم في الحفاظ عليها وإبراز بلاغتها وإستلهام معانيها في أحاديثه الشريفة (ﷺ) ، فضلاً عمّا بيّنه البحث في صفحاته ما للنبي محمد بن عبدالله (ﷺ) من جهود أصيلة وكبيرة جداً في تأصيل وتوحيد كيان اللغة العربية والحفاظ عليه من الضياع والتشتت في غياهب اللهجات المتفرقة ، فغدا ذلك الحفاظ في ألفاظه النبوية المباركة .

فضلاً عن وضوح ذلك في أثر ذلك في نهوض اللغة العربية بألفاظ ودلالات ذات إيحاءات جديدة عبّرت عن تطورها وجعلها متجددة مع روح العصر بما لا يقدح بأصالتها وجذورها التي سقاها النبي الخاتم (ﷺ) بجهوده وكلامه الشريف ففرح بذلك من بَذَر تلك البذور المباركة للعربية وهو الله تعالى .

Abstract

God granted man the ability to express his inside thoughts, sensations and feelings, so language became an important medium for that. Moreover, it is the identity of the nation and the sign of its existence, and so was it for the language of the Holly Quran, Arabic language that Prophet Mohammed

had articulated. This research tries to make obvious the role of Prophet Mohammed in the revival and safety of Arabic language.

هوامش البحث

(١) سورة النحل : الآية ١٠٣ .

(٢) ديوان حافظ إبراهيم : ٢١٠-٢١١ .

(٣) ينظر : علم اللغة : د. عبدالله علي ، ود. عبدالله عبدالحميد ، مراجعة : د. سعدون السويج :٧.

(٤) ينظر : نحو إتقان الكتابة العلمية باللغة العربية : د. مكي الحسني .

(٥) كنز العمال : ٤٠٢/١١ .

(٦) كنز العمال : ٤٠٦/١١ ؛ وينظر : مجمع البيان : ٨٦/١ .

(٧) كنز العمال : ٤١٢/١١ .

(٨) فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته : عادل البدري : ١٤٠ .

(٩) النهاية : ٧٦/٥ .

(١٠) ينظر : فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته : ١٤٦-١٤٧ .

(١١) المعجم الكبير : الطبراني : ٨٢/٣ .

(١٢) ينظر : فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته : ١٥٣ .

(١٣) ينظر : جمهرة اللغة : ابن دريد: ٥٧٩/١ .

(١٤) المعجم الكبير : الطبراني : ٢٥٠/١ .

(١٥) معجم مقاييس اللغة : ٤٥٨/٥ (نفح) .

(١٦) صحيح مسلم : ٩٩٣/٢ .

(١٧) ينظر : فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته : ١٦٩ .

(١٨) المعجم الكبير : ٢٥٠/١ .

(١٩) الجامع الصغير : ١٨٣/١ .

(٢٠) مسند احمد : أحمد بن حنبل : ٤١٥/٥ .

(٢١) المعجم الكبير : ٣٦٦/١ .

(٢٢) صحيح البخاري : البخاري : ١٢/٨ .

(٢٣) عوالي اللآلئ : ٢٦٧/١ .

(٢٤) الفصحى لغة القرآن : انور الجندي : ١٦ .
(٢٥) ينظر فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته : ٣٧٣ .
(٢٦) ينظر : المصدر نفسه : ٣٧٤ .
(٢٧) الطبقات الكبرى : ابن سعد : ٣٣٣/١ .
(٢٨) ينظر : فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته : ٣٨٢ .
(٢٩) معاني الأخبار : ١٠٣ .
(٣٠) ينظر : فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته : ٣٩٦-٣٩٧ .

قائمة المصادر والمراجع

وخير ما نبتدأ به القرآن الكريم .
١- الجامع الكبير : جلال الدين السيوطي : ط١ ، دار الفكر ، بيرت – لبنان ، ١٤٠١هـ .
٢- جمهرة اللغة : ابن دريد الأزدي ، تحقيق : رمزي منير بعلبكي ، د.ط ، دار لعلم للملايين ، بيروت – لبنان ، د.ت .
٣- صحيح البخاري : البخاري ، د.ط ، دار إحياء التراث ، بيروت – لبنان ، د.ت .
٤- صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج ، د.ط ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، د.ت .
٥- ديوان حافظ إبراهيم : حافظ إبراهيم ، د.ط ، لقاهرة – مصر .
٦- الطبقات الكبرى : ابن سعد ، د.ط ، منشورات بيضون العلمية ، بيروت – لبنان ، د.ت .
٧- علم اللغة : د. عبدالله علي مصطفى ، و د. عبدالله عبدالحميد سويد : مراجعة : د. سعدون السريح ، ظ١ ، دار المدينة القديمة للكتاب ، طرابلس – ليبيا ، ١٩٩٣م .
٨- عَوالي اللآلئ : ابن جمهور الإحسائي ، ط١ ، مطبعة سيد الشهداء ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٣هـ .
٩- فصاحة الرسول المصطفى وبلاغته : عادل البدري : ط١ ، دار الأثر ، بيروت – لبنان ، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م .
١٠- الفصحى لغة القرآن : أنور الجندي : د.ط ، دار الكتاب اللبناني ، د.ت .
١١- كنز العمال : المتقي الهندي : د.ط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٩هـ .
١٢- مجمع البيان : الطبرسي : د.ط ، منشورات مكتبة المرعشي ، قم – إيران ، د.ت .
١٣- مسند أحمد : أحمد بن حنبل : د.ط ، دار صادر ، بيروت – لبنان ، د.ت .
١٤- معاني الأخبار : محمد بن علي الصدوق : د.ط ، جماعة المدرسين ، قم – إيران ، ١٣٦١ش .

١٥- المعجم الكبير : لأبي القاسم الطبراني ، ط٢ ، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة – مصر ، د.ت .
١٦- مقاييس اللغة : أحمد بن فارس : د.ط ، مكتب الإعلام الإسلامي ، طهران – إيران ، ١٤٠٤هـ .
١٧- نحو إتقان الكتابة العلمية باللغة العربية : د. مكي الحسني : ط١ ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .
١٨- النهاية في غريب الحديث والأثر : ابن الأثير الجزري ، ط١ ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ١٤١٨هـ .